

المحاضرة الثامنة المجال العام في المدينة الجزائرية

ذهنية ما بعد البايك، أي وجه للأزمة؟

موافقة المسترقيين لا قوّة الطاغية هي التي تؤسّس الطغيان.

أولا. على سبيل التقديم:

إن تاريخ الجزائر هو تاريخ الاستعمار الطويل، تاريخ تشكل من خلاله تطور المجتمع الجزائري وارتسمت خصائصه من مرحلة لأخرى، ولعل ابرز المراحل التاريخية مرحلة الفتوحات الإسلامية التي سمحت ببروز تقسيم اجتماعي متنوع، ساد فيه التسامح والتعايش بين العرب والبربر ما سمح ببروز دول قوية في شمال افريقية.

ولئن احتفظ الأتراك بالتقسيم الاجتماعي الذي وجدوه فإنهم وضعوا تقسيما إداريا مرنا يتميز بمحاولة التكيف حسب ما تفرضه الأحوال المختلفة، مرونة مكّنت من توحيد الجزائر دون توحيد افرادها؛ فقد وحدتها ترابيا ورسمت فيها حدود الدولة لكنها لم تفلح في تحقيق الوحدة المعنوية بين الجزائريين والإدارة العثمانية.

إن نظام البايك هو محاولة لإقامة إدارة مركزية من طرف الأتراك، وهي سياسة أدت في الواقع إلى لامركزية حرمت الدولة من موارد داخلية هامة، لأن الفساد والسلب والنهب والرشوة جعل جزءا كبيرا من الأموال المحصلة تذهب للوسطاء بين الإدارة والشعب.

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

كما أن ارتفاع الضرائب عزز من السخط الشعبي على نظام الإدارة التركبية، وكانت له عواقب سياسية واقتصادية واجتماعية وخيمة، تجرعتها وكابدها الجزائريون لثلاث قرون.

ثانيا. إشكالية البايك:

إن الملاحظ للمجال العام في المدن الجزائرية، يلاحظ بلا شك استعمال الدلالات المادية والرمزية عبر مختلف الأماكن والأزمنة، ولكن لا يمكن فهمها دون وضعها في سياقها التاريخي الذي أنتجها أو نشأت فيه.

فمن الناحية الرمزية؛ نجد أن المجال العام يشار إليه بالكثير من التسميات، مثل البايك الذي يُعدّ من التعبيرات المستخدمة محليا بكثرة للإشارة إلى كل ما هو ملك للدولة، وله دلالات رمزية كبيرة، يمكننا تحليلها من فهم الكثير من السلوكات الاجتماعية التي تعكس أزمة المواطن في المدينة، تكسير لمواقف الحافلات، للإشارة العمومية، للافتات، للإشارات الضوئية، تخريب لكل ما يمكن تخريبه، أوساخ وقمامة تنتشر في كل مكان الا في الحاويلت، تكسير لزجاج القطارات، كتابة على الجدران بعبارات تخدش الحياء، نافورات لا تعمل، مساحات خضراء جرداء.....

كما تمكننا التحليلات المتعلقة بمفهم البايك في المجال العام من فهم العلاقة بين المواطن والدولة، كون البايك كمصطلح ظهر مع العثمانيين لكن لم يختفي بذهابهم بل ظل يعاد إنتاجه من مرحلة تاريخية لأخرى حتى يومنا هذا، وتأسيسا على هذا الطرح يمكن أن يعالج هذا المفهوم في إطار تاريخي كمنظومة قيمة ارتسمت وترسخت لدى الجزائريين تعكس ذهنية الجزائري في مواقف معينة.

محاضرات في مقياس سوسيوولوجيا الرابطة الاجتماعي د. تالي جمال

لذلك نطرح مفهوم ذهنية ما بعد البايك، كون المفهوم انتهى والذهنية بقيت تحافظ على شكلها وتتجدد في مظاهرها متعايشة مع خصوصيات كل مرحلة، وعليه نسعى لتحليل هذا المفهوم في سياقه التاريخي، والكشف عن مظاهر الأزمة وتجلياتها في المدينة الجزائرية.

1. البايك في سياق نفسي اجتماعي:

نتكلم عن جانب اجتماعي لاشعوري لكنه يبرز وكأنه اتفاق عام بين أفراد المجتمع، والاشعور في أدبيات التحليل النفسي يعبر عن منطقة نستطيع أن نفهم من خلالها سلوكياتنا سواء كانت سوية أو غير سوية، وحسب تصور فرويد فالشخصية بمثابة جبل الجليد أي أن ما هو خفي (العقل الباطن) أضخم بكثير مما يظهر.¹

وسواء في العقل الظاهر للوعي أو اللاوعي الباطني، فإن لكل منهما طبقات بعضها عميقة الجذور خلافا للبعث الأخر. وان كان هذا حال الشخصية التي يتمثلها إنسان يعيش عمرا محدودا، فكيف بحال مجتمع يمتد في نشأته إلى آلاف السنين يتناقل أفراد العادات والتقاليد والقيم والثقافة من جيل إلى جيل، وشكلت اتجاهاته إزاء قضايا معينة عقيدة راسخة لا تتغير الا بتغير الأسباب التي أنتجتها.

مما سبق يمكن أن نتكلم عن منظومة من القيم التي تقع في منطقة عميقة من اللاشعور الاجتماعي، وتشكل البناء الاجتماعي وتطبعه، بل وتعد موجهة من موجهاة السلوك، لذلك نجد لمقولة إميل دور كايم ما يبررها دوما في السياق الاجتماعي "إذا تكلم الفرد فينا فإن المجتمع هو الذي يتكلم" الفرد في كلامه وسلوكاته وإشارات ورموزه

محاضرات في مقياس سوسيوولوجيا الرابطة الاجتماعي د. تالي جمال

يعبر عن حياة نفسية مفعمة بالحياة والحيوية والتفاعلات التي تختلط الدلالات فيها بين الشعور واللاشعور، ولمجتمع ككيان يجمع هؤلاء الأفراد بكل ما يميزهم.

2. البايلىك عادة إنتاج المفهوم:

أصل الكلمة تركية عثمانية bayilik بمعنى مقاطعة أو محافظة، وتستعمل بمعنى الدولة أو القطاع العمومي. وهو لا يعبر عن منظومة قانونية، ولا دستور، ولا ميثاق، وإنما هو مجموعة من القواعد العرفية والتقاليد والعادات التي تتوافق لاتمام التوافق مع الدين المتغلغل في القبيلة ونظامها، من حيث قيمة الفرد وقيمة الجماعة وقيم الانتماء والحماية، مع الإبقاء على التراتبات الاجتماعية والاقتصادية بعيدا عن مفاهيم الطبقة والإقطاع.²

لقد ارتبط البايلىك ارتباطا تلازميا وثيقا مع الزوايا والأوقاف والصدقات واندماج مع نظام الحكم العثماني، وحاول الفرنسيون بعد احتلال الجزائر الاحتفاظ بعناصر السيطرة الموجودة فيه. ويمكن أن نشير هنا إلى³:

- مصطلح بايلىك أصله بكلك وهو مشكل من مقطعين "بك" وتلفظ باي و"لك"، الذي يعني لقب أبناء السلاطين، ثم استعمل لقباً لمعظم كبار الموظفين.
- كلمة بايلىك صارت اصطلاحاً لكل ما هو ملك للدولة فيقال طريق البايلىك وأرض البايلىك....وتعني أيضا كل ما هو عمومي وملك للجميع.

محاضرات في مقياس سوسيوولوجيا الرابطة الاجتماعي د. تالي جمال

- البايك يبعد عن نظام سياسي وإداري واقتصادي واجتماعي وإيديولوجي انتهجه العثمانيون في الجزائر بطريقة تتماشى مع الذهنية المحلية ومع النظم والعرف القبلي.
 - ارتباط الباى بالدائ معنوي بالطاعة والولاء، وارتباط مادي بين الباى ورعيته ببايكة الولاء بالضرائب وتزويد المحلة.
 - نظام البايك يضع السلطة بصورة إجمالية بيد الجيش، وهو مكون من عناصر تم اختيارها على قاعدة عنصرية دون تجنيد الأهالي.
 - حاول الاستعمار الفرنسي إعادة إنتاج نظام البايك بما يضمن له الحفاظ على مصالحه وعدم ثورة الأهالي، حيث أحدث الماريشال فالي عدة تحويرات جوهرية تعتمد على عنصرين؛ هما الاستيطان والدمج.
- نتكلم هنا عن مخزون من الممارسات التي تميزت بالظلم والتسلط على الجزائريين، جعلت من البايك رمزا لاحتقار والظلم والحرمان من ابسط الحقوق مع المطالبة بدفع الضرائب المبالغ فيها.

3. المجال العام في المدينة:

يعتبر الانثروبولوجيون المجال العام مجالا للمعايشة الاجتماعية، تتيح للفرد تطوير شبكة علاقاته الاجتماعية من خلال الاحتكاك والتفاعل والالتقاء مع الآخرين. أما الاتجاهات المعاصرة فحاولت أن تعطي لهذا المفهوم أبعادا مادية ملموسة، يتمثل في استخدامه للإشارة للساحات والشوارع والحدائق،...وكل الأشكال الحضرية التي تستعمل من طرف جميع سكان المدينة بطريقة حرة وديمقراطية، غير أن الفلسفة

محاضرات في مقياس سوسيوولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

السياسية فيعتبر المجال العام ساحة للتحول من مجتمعات شمولية إلى مجتمعات ديمقراطية.⁴

ان ملاحظة المجال العام في المدينة الجزائرية يؤدي بنا الى اكتشاف استعمالات مادية ورمزية مختلفة عبر الزمان والمكان، ومن الصعب فهمها دون وضعها في سياقها التاريخي الذي أنتجها.

فمن الناحية الرمزية، يشار للمجال العام بمصطلح "البايك" والذي يعد من أهم التعبيرات المستخدمة للإشارة لكل ما هو ملك للدولة، بل ويستخدم كمبرر للتخريب والتكسير والاستغلال غير العقلاني "ياك انتاع البايك، انت واش دخلك"، كثيرا ما يسمعا الفرد في المجتمع اذا ما حاول منع أي فعل تخريبي ضد الممتلكات العامة.

وللمصطلح دلالات تاريخية كبيرة، ويكشف عن علاقة متأزمة بين الحاكم والمحكوم، علاقة متأزمة عجزت عن إنتاج مواطن وقيم مواطنة يتبادل فيها الطرفان الاحترام والتقدير، وتكون ثنائية الحق والواجب إطارا ناظما للسلوك ومتحكما فيه، فالبايك هو من بقايا العهد العثماني ومن ترسبات سياسة الظلم والاستبداد والفساد الإداري والرشوة التي عانى منها الجزائريون لقرون طويلة.

ليعاد إنتاج المفهوم بمنظومته المتواضعة التي تعتمد على آليات هشة مع الاستعمار الفرنسي، وهي إحدى سياسات التمكين التي انتهجها الفرنسيون إداريا، وتتأزم العلاقة أكثر ليجد الجزائريون أنفسهم أسوأ حالا من العهد الذي سبقه.

محاضرات في مقياس سوسيوولوجيا الرابطة الاجتماعي د. تالي جمال

والأغرب انه وبعد الاستقلال أعيد إنتاج المفهوم عن طريق جزأته إن صح التعبير؛ أي أصبح هناك بايلك وطني خاصة مع مرحلة التسيير الاشتراكي التي تملك فيها الدولة المؤسسات الصناعية ووسائل الإنتاج، وعملت على مركزية الإدارة واعتماد التقسيم الإداري الذي عرف مع البايك، شرق (قسنطينة) وغرب (وهران) ووسط (العاصمة).

ان النظام السيلي الذي حكم الجزائر بعد الاستقلال سعى في مختلف المراحل التاريخية، إلى الاستيلاء على المجال العام بمختلف الأشكال الرمزية والمادية، البناءات والصروح العمرانية الممجة لرموز السلطة، والصور العملاقة المثبتة في العمارات والجدران واللوحات الاشهارية المطلة على الساحات والشوارع الرئيسية في المدن.⁵

أما الاستعمال المادي للمجال العام فهو أكثر تنوعا وتعقيدا، بسبب قدرة الفاعلين في المدينة على ترك اثر لهم في هذه المجالات، والذي نشير إليه هو ان الاستعمال المادي على علاقة وثيقة بالاستعمال الرمزي، ان الحدائق والساحات العمومية والشوارع والأرصفة، يستعملها التجار المتنقلون لعرض سلعهم فيها وهو ما يجعل هذه المجالات تفقد وظيفتها.

إن الكثير من الممارسات الاجتماعية المنحرفة كالدعارة وتعاطي الممنوعات والعنف بمختلف أشكاله، والاعتداء الجسدي على المارة وسرقتهم من طرف المنحرفين تنتشر ويكثر في هذه الأماكن.



محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابطة الاجتماعي د. تالي جمال

وهي بهذا المعنى أماكن منبوذة ومحرمة أخلاقيا وغير آمنة تنازل عليها أفراد

المجتمع ولا يرتادها إلى فئة قليلة من أفراد المجتمع،



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابطة الاجتماعي د. تالي جمال

أسئلة تقويمية:

هل يمكن دراسة الفرد بمعزل عن وعيه التاريخي؟